٢- انقسام الكنيسة المسيحية الى ثلاثة اقسام: الارثوذكسية في شبه جزيرة البلقان وروسيا، والكنيسة الكاثوليكية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا والبرتغال وبولندا والنمسا وجنوب المانيا، والكنيسة البروتستانتية في المانيا الوسطى والشمالية والدنمارك والسويد والنروج وبريطانيا وشمال ايرلندا.
٣- دخول اوربا في الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت (حرب الثلاثين عاماً) اشتركت فيها دول اوربية خلال فترة ١٦١٨-١٦٤٨.
٤- ادت حركة الاصلاح الديني دوراً في تنشيط الحياة الاقتصادية حيث اعتبر جهد الانسان وعمله جزء من الايمان وان الحصول على الثروة امراً طبيعياً وليس حكراً على رجال الدين.
٥- تنشيط حركة الترجمة وتأسيس الصحف والمجلات العلمية وكتابة وتأليف الكتب ونشرها فب عموم اوربا.
٦- عملت على تحرير الفرد وشجعت الحكم الديمقراطي واقرت حرية العقيدة والفكر ومكافحة السحر وشجعت التعليم والفن المعماري.

الفصل الرابع

اسبانيا في القرن السادس عشر

اولاً: اسبانيا في عهد شارل الخامس ١٥١٦-١٥٥٦

بلغت اسبانيا درجة كبيرة من القوة في النصف الأول من القرن السادس عشر لعدة أسباب منها:

١- احتفاظها بقوة عسكرية مدربة اكتسبت الخبرة الحربية في القتال التاريخي مع المسلمين في تلك الجهات.
٢- ثروات العالم الجديد المنهالة على إسبانيا.
٣- ازدياد السيطرة الملكية لا تباعها أساليب مكافلِيللية في الداخل وسياسة المصاهرة مع الأسر الحاكمة الأوربية في الخارج.

تمخضت التطورات الإسبانية في النصف الأخير من القرن الخامس عشر عن ظهور دولة إسبانية موحدة على أثر الزواج الذي تم بين إيزابيلا، ملكة قشتالة وقريبها فرديناند ملك ارغون. وتنتمي هذه الأسرة الى انغوط الغربيين أصلاً، واتبع كل من فرديناند، و إيزابيلا سياسة المصاهرة مع الأسر الأوربية الكبرى إذ كانت لهما ثلاث بنات زوجت الأولى الى ملك البرتغال عمانونيل الأول ١٤٩٥-١٥٢٤ على أمل أتحاد العرشين الإسباني والبرتغالي، وزوجت الثانية وهي كاترين الى ملك إنكلترا هنري الثامن، أما الثالثة جوانا فقد زوجت الى فليب هيسبرغ الذي كان والده مكسميليان الأول(١٤٩٣-١٥١٩) ، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأمه ماري أمره منطقة بروغندي وورثة الأراضي المنخفضة.

حكم فليب الاراضي المنخفضة منذ وفاة والدته سنة ١٤٨٢، وهناك ولد له شارل الذي قدر له أن يطبع أسمه على حوادث النصف الأول من القرن السادس عشر في أوربا، حكم فليب إسبانيا نيابة عن زوجته عند وفاة إيزابيلا سنة ١٥٠٤ مشاركة مع فرديناند. وخلف ابنه شارل سنة ١٥٠٦ عند وفاته وأصبح هذا منفرداً في الحكم عند وفاة فرديناند سنة ١٥١٦، كما ورث عرش الإمبراطورية الرمانية المقدسة عند وفاة جده مكسميليان.

ارتقى شارل عرش اسبانيا باسم شارل الاول بعد وفاة جده من امه فرديناند سنة ١٥١٦. وزوال شخصية فرديناند القوية في بلد لم تكن وحدته متكاملة تماما فسح المجال لظهور النزاعات القديمة ومحاولة النبلاء استرجاع نفوذهم وبسط سيطرتهم على المدن، بينما قاومت المدن ذلك. وكره النبلاء والمدن مجيء الهولنديين الى اسبانيا مع شارل الذي كان اميرا على الاراضي المنخفضة منذ وفاة والده فيلب سنة ١٥٠٦. ترك شارل الاراضي المنخفضة الى اسبانيا في ايلول ١٥١٧، ووصل الى قشتالة في نهاية تشرين الاول، وفي شباط ١٥١٨ اجتمع كورتيس قشتالة ووعد ان يراعي تقاليد وعرف البلاد ولا يعين غير المواطنين الاسبان في الوظائف الحكومية، ووافق الكورتيز منحه مبلغا من المال لمدة ثلاث سنوات، وان يكون شريك امه جوانا في الحكم ووصيا عليها.

كانت محاولة شارل تأسيس ادارة منظمة وحكومة مستقرة، ومطالبته المال في كل مدينة يزورها، اثارت حفيظة النبلاء الذين تحرروا من قبضة فردنند بعد موته، واخذوا يبثوا الفوضى والبلبلة ويوسعون اراضيهم على حساب الاخرين. وقد ظهرت بوادر الفوضى والاضطرابات ايذانا بالثورة لما تكاثرت الشكايات. واندلعت الثورة فعلاً لمتا وصل نبأ وفاة الامبراطور مكسمليان، وطلب الناخبون الالمان رجوع

شارل الى المانيا لانتخابه امبراطورا. وكان الاسبان يكرهون التبعية للإمبراطورية الرومانية المقدسة وحكم الاجانب من الالمان والهولنديين. وحاول الثوار منع الملك من ترك البلاد، غير ان شارل تمكن من الافلات، وعين احد الهولنديين نائبا له في قشتالة ليواجه ثورة عارمة.

لقد كانت الثورة من عمل النبلاء وسكان المدن في آن واح، وكانت الكنيسة في كثير من الاماكن تؤيد مقاومة الاسبان للأجانب. وقد اكتسح الثوار القسم الكبير من البلاد، وشكلوا حكومة لأنفسهم في ١٥٢٠، واعلنوا الاطاحة بنائب الملك وشرعية حكومتهم، وقد وصل الثوار الى عاصمة قشتالة، واعلنوا الملكة جوانا قد استعادت صحتها وطلبوا منها الموافقة على شرعية حكومتهم، لكن جوانا فقدت شعورها مرة اخرى قبل ان تنطق بالموافقة، وكان مطاليب الثوار عبارة عن شكاوى قديمة واصلاحات دستورية. اما مطاليب سكان المدن فكانت تدور حول اصلاح الكورتيز الذي لو تم لقيد سلطة الملك. فكانوا يريدون اجتماع الكورتيز كل سنتين دون دعوة ملكية، والغاء امتيازات النبلاء، واعفائهم من الضرائب وتعيينهم في مناصب الدولة.

غير أن شارل ايد النبلاء ضد مطاليب سكان المدن وبذلك احرز شارل انتصارا عظيما بكسب ولاء النبلاء الذين اخمدوا الثورة. ولما رجع شارل الى اسبانيا بعد تتويجه امبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، كانت الثورة المعروفة بثورة كوميوناروس، قد انتهت. وبإخماد الثورة انتهى النظام البرلماني في اسبانيا وبدأ الحكم المطلق دون الغاء الكورتيز، وقد ايد النبلاء وسكان المدن شارل الذي اعلن عفوا عاما للجميع، وكانت ثورة لوثر وتمسك شارل بالكنيسة الكاثوليكية والدفاع عنها، وحصوله على منصب الامبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة، قربه من الشعب الاسباني واخذوا يعتزون به، وانهالت ثروة امريكا واسبانيا على شارل، واصبح متعاطفا مع الاسبان وطبق سياسة اسبانية صرفة، واتخذ الحيطة والحذر في الاساءة الى شعورهم حين وفاته.

تنازل شارل الخامس عن العرش سنة ١٥٥٦ بعد ان انهكته الحروب والمنازعات، وقسم املاكه بين ابنه فيلب واخيه فردنند، وكانت اسبانيا والاراضي المنخفضة وامريكا وايطاليا من نصيب فيلب. بينما ورث فردنند ممتلكاته الوراثية في المانيا وكان منذ ١٥٣١، يحكم المانيا بدلا من اخيه شارل الذي كان غائبا على الاكثر. ولم يبق سوى لقب الامبراطور الذي احتفظ به شارل لنفسه الى حين وفاته سنة ١٥٥٨. وقد قضى السنتين الاخيرتين من حياته في دير في اسبانيا يتعبد ربه.

واجه شارل الخامس عدة مشكلات داخلية وخارجية، ولعل أهم مشكلاته الداخلية الحركة البروتستانتية اللوثرية في ألمانيا وما نتج عنها من ثورات الفلاحين، أما المشكلات الخارجية فيمكن إيجازها بما يأتي:

أ- **<u>الحروب الإيطالية:</u>** كانت هذه الحروب في حقيقتها مستمرة بين كل من فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أواخر القرن ١٥م. أما أسبابها المباشرة في عهد شارل الخامس فكانت:

١. العلاقات السلبية بين كل من ملك فرنسا فرانسوا الأول ١٥١٧-١٥٤٧م وشارل الخامس.
٢. مطالبة فرنسا بعرش نابولي.
٣. احتلال الجيوش الفرنسية مدينة ميلان.
٤. أدعاء فرنسا بإمارة نافار بين فرنسا وإسبانيا.
٥. أطماع فرنسا بالأراضي المنخفضة الغنية وكذلك محاولتها الاستيلاء على بروغندي.
٦. طموح فرانسوا الأول بعرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

أصبحت إيطاليا ميدان الصراع الرئيس بين شارل الخامس وفرانسوا الأول منذ سنة١٥٢٢، إلا أن الجيوش الإمبراطورية أحرزت نصراً كبيراً على الفرنسيين في موقعة بافيا في إيطاليا سنة ١٥٢٥، أضطر بسببها فرانسوا الأول على توقيع معاهدة مدريد سنة ١٥٢٦ التي تنازل بموجبها عن ادعائه في كل من بروغندي والأراضي المنخفضة وإيطاليا، ثم قبل أن يتزوج أخت الإمبراطور، إلا أنه حال رجوعه الى فرنسا أعلن إلغاء الاتفاقية. وفي الوقت ذاته أعلنت عصبة المدن الإيطالية بالاتفاق مع البابوية تحديها للإمبراطور. وفي سنة ١٥٢٧ تمرد الجيش الإمبراطوري في إيطاليا لتأخر مرتباته، فقرر تعويض ذلك عن طريق نهب مدينة روما، اذ هلك في تلك المدينة ما يقارب ٤٠٠٠ شخص واستمر النهب تسعة أشهر ويعتقد البعض أن ذلك الحادث وقع بأمر الإمبراطور معاقبة للبابا لانحيازه لفرنسا. تمكنت الجيوش الإمبراطورية من الانتصار على حلفاء فرنسا من الإيطاليين وعقد فرنسوا الأول صلح أشير له باسم صلح كمبري سنة ١٥٢٩، وهو تكرار لما ورد في معاهدة مدريد عدا موضوع بروغندي إلا أن هذا الصلح لم يكن سوى هدنة مؤقتة، إذ تحالف فرانسوا الأول مع اسكتلندا والسويد والدنمارك والأمراء البروتستانت والدولة العثمانية، واستمرت الحروب متقطعة حتى وفاة فرانسوا الأول وتنازل شارل الخامس عن العرش.

ب- **النزاع مع الدولة العثمانية:** أصبحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) تمثل خطر كبير على الإمبراطورية الرومانية المقدسة اذ فرض العثمانيون الحصار على فينا لمدة ثلاث أسابيع وعلى الرغم من فشل الحصار فأن ازدياد الأخطار العثمانية اضطر الإمبراطور شارل الخامس الى عقد اتفاقية مع العثمانيين سنة ١٥٤٧ أعترف بموجبها بالسيطرة العثمانية على هنغاريا وتعهد بدفع اتاوات سنوية الى العثمانيين.

ج- **المشكلة الإنكليزية:** وهي مشكلة دينية وشخصية ودولية. أما الدينية فتمثلت في سياسة هنري الثامن تجاه البابوية، إذ كان هذا بداية أمره كاثوليكياً متعصباً استفزته أعمال النهب في روما التي قام بها الجيش الإمبراطوري فأغاز الى جانب فرنسا والبابوية وساءت العلاقات أكثر بسبب خلاف بين هنريالثامن وكاترين، أما الدولية فتمثلت في سياسة إنكلترا التي وضعها الكاردينال توماس ويلزي(١٤٧٥-١٥٣٠) في المجالات الخارجية الأوربية والمسماة بسياسة التوازن الدولي. قصد ويلزي بهذه السياسة ان لا تسمح إنكلترا لفرانسوا الأول أو شارل الخامس أن يكون أي منها قوة كبرى في أوربا، لهذا يجب على إنكلترا أن تساعد أي من الطرفين كلما دعت الضرورة الى ذلك حفاظاً على مصالحها. وكان توماس ويلزي الموجه للسياسة الخارجية الإنكليزي الى سنة ١٥٣٠. ومع ذلك تحسنت العلاقات بين الإمبراطورية وإنكلترا مؤقتاً، لاسيما عند اعتلاء ماري ثيودور العرش الإنكليزي وزواجها من فليب الثاني، أبن شارل الخامس.

ثانياً: اسبانيا في عهد فيلب الثاني ١٥٥٦- ١٥٩٨

فيليب الثاني هو ابن شارل الخامس. ولد عام ١٥٢٧، لكنه لم يرث جميع املاك ابيه، لان عمه فرديناند انتخب امبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة وورث ممتلكات آل هبسبرك النمساوية.

تزوج من ماريا البرتغالية التي ماتت اثناء ولادة ابن لها (دون كارل)، وكان هذا مجنونا وسفاكاً فحبسه والده وقيل انه امر بقتله في السجن، وقيل ايضا انه مات موتا طبيعيا. وكانت زوجته الثانية ماري تيودور ملكة انجلترا التي شغفت بحبه دون ان يبادلها الحب. لكن زوجته الثالثة البزابيت فالوا بنت هنري الثاني ملك فرنسا كانت الزوجة الثالثة بالنسبة اليه وحزن كثيراً لموتها سنة ١٥٧٨، وتزوج آن النمساوية بعد ذلك لأغراض سياسية ولكي ينجب منها ولدا يرث العرش، لكن ابنهما فيلب الثالث لم يستطع ان يشغل مكان والده.

كان فيلب الثاني رجلا مستبدا في الحكم، مجدا في عمله ويشرف على جميع قضايا الدولة بنفسه، ولكثرة انشغاله بالتوافه الامور لم يفطن الى الاسس العامة والقضايا الكبرى في ... والسياسة، وكان كاثوليكيا مخلص لعقيدته، وقد بلغ به اخلاصه درجة التعصب، فأسس محاكم التفتيش لمحاكمة البروتستانت وغير المسيحين، ومن صفاته الاخرى انه كان مرتابا متحايلا تتمثل فيه السياسة الميكافيلية. ولك يكن يلتجئ الى الحرب الا اذا وجد في ذلك ضرورة. وكان يريد حل مشاكل بأساليب دبلوماسية. اما اذا كانت الحرب ضرورة ملحة فلم يكن يتردد في خوضها. وكانت مهمته الكبرى وحدة العالم المسيحي وجعل اسبانيا اعظم دولة في العالم. لكنه فشل في هذه المهمة لان فيلب اراد ان يدير ممتلكاته الواسعة بنفسه فتدخل في جميع الامور في آن واحد. فبينما كان يشرف على القضايا الادارية المعقدة كان عليه ان يدير المستعمرات بروح السياسة التجارية وينفذها في كل من أسيا وافريقيا وامريكا، كما كان عليه ان يقضي على الثورات والاضطرابات التي حدثت في الاراضي المنخفضة، ويقف في وجه البروتستانتية في كل من انجلترا وفرنسا، ويناصر المسيحية ضد المسلمين المسيطرين على جنوبي شرقي أوربا وشرقي البحر الابيض المتوسط. والنتيجة كانت كارثة على الدولة الاسبانية ومواردها، فلم ينته القرن السادس عشر الا وبدأت عوامل الانحلال تظهر بحيث ان فيلب الثاني نفسه لاحظ ذلك قبل موته سنة ١٥٩٨.

☒ سياسته

كان فيلب الثاني يؤمن بالوحدة الوطنية، وجعل اسبانيا دولة ذات قوانين موحدة وعادات وتقاليد متجانسة، وهذا يعني تقوية الملكية المطلقة، ولهذا فالوحدة الوطنية في نظره يجب ان تتماشى مع الملكية المطلقة، ولم يعارض فيلب وجود الكورتيز (البرلمان) في البلاد، وكان الكورتيز يجتمع بين حين وآخر ويوافق على الضرائب الجديدة، بينما كانت الضرائب القديمة تستمر تكون دخلا سنويا للخزينة دون ان يحاول الغائها، فوضع بذلك سابقة يسير عليها ملوك اسبانيا فيما بعد.

اما من الناحية الدينية فكان فيليب يرى ان اختلاف المذاهب والمعتقدات في دولة ما يؤدي حتما الى التفرقة والهدم. ولما كان فيلب يرغب في وحدة الصف وجمع الكلمة لتوحيد اسبانيا فأكد على الكنيسة الكاثوليكية كعقيدة رسمية للدولة لأسباب سياسية ودينية. اما سياسيا فلان الاسبان والبرتغاليين كانوا كاثوليك وقاموا بنشر العقيدة الكاثوليكية اينما حلوا، وهذا عامل مساعد بحد ذاته لضم البرتغال الى اسبانيا في المستقبل. ولتنفيذ سياسته الدينية كمؤمن مخلص للكثلكة شجع البابا على الاستمرار في اصلاح الكنيسة الكاثوليكية ولاسيما اثناء اجتماع مجمع ترنت في ايطاليا. واسس محاكم التفتيش واستخدمها لتنفيذ سياسته الاستبدادية، وخاصة من الناحية الدينية. وفي الوقت نفسه حاول القضاء على البروتستانت في فرنسا وارجاع انجلترا الى حضيرة الكنيسة الكاثوليكية.

ولتنفيذ سياسته الرامية الى وحدة شبه جزيرة ايبيريا، ادعى فيلب الثاني سنة ١٥٨٠ عرش البرتغال، باعتبار ان والدته كانت بنت ملك البرتغال، واقنع عائلة براكنز (التي كانت احق بالعرش من فيليب) بالتنازل مقابل مبلغ ضخم من المال. وهكذا اكتسح الجيش الاسباني البرتغال التي انضمت الى اسبانيا، واعترف فيليب بالمؤسسات السياسية والحقوق الدستورية للبرتغاليين وقرب النبلاء الصغار والمزارعين في ذلك البلد، لكن هذه الوحدة لم تنل رضا الشعب البرتغالي الذي ظل يرضخ لسيطرة اسبانيا مدة (٦٠) سنة، وفي سنة ١٦٤٠ انفصلت البرتغال مرة اخرى واصبحت مستقلة بزعامة عائلة براكنز.

☒ اضطهاد الموريسكوس وتهجيرهم من اسبانيا

كانت سياسة فيليب الثاني اذلال المسلمين الترك واخضع الموريسكوس (كما كان التعبير شائعا في حينه).

وهؤلاء الموريسكوس هم من بقايا العرب الذين بقوا في اسبانيا واعتنقوا المسيحية تحت ضغط فردناند وايزابيلا، لكنهم على الاعم الاغلب تمسكوا بدينهم الاسلامي سرا. والدليل على ذلك عدم مسايرتهم الاسبان في معتقداتهم وتطبيق شعائرهم. ويقال ان فيلب الثاني نصح محاكم التفتيش سنة ١٥٦٤ بان لا تتشدد كثيرا ضد الموريسكوس، وان تحاول الكنيسة الكاثوليكية تعليمهم شعائر الكنيسة وطقوسها واصول الديانة المسيحية. لكن شيئاً من هذا لم يأت الى حيز التنفيذ وكان فيلب الثاني كأي حاكم مستبد لم يسمح بمخالفة سياسته، وربط وجود المسلمين في اسبانيا بولائهم للأتراك العثمانيين.

وفي سنة ١٥٦٦ اصدر مرسوما باعادة تطبيق قانون ١٥٢٦ الذي ينص على الغاء اللغة العربية. والاسماء العربية، والملابس والحلي العربية والحمامات الشرقية، ووجوب استخدام القابلات المسيحيات من قبل العوائل الموريسكوس عند الولادة، وفرض على الموريسكوس تعلم اللغة الاسبانية خلال ثلاث سنوات دون تعيين معلمين لهم، وقد عرض بعض القاجة والحكام تطبيق هذه السياسة اللاعقلانية من بينهم حامن غرناطة (دي ميندوزا) و(ديوك اوف الفا). لكن لم يكن هناك من يثني فيلب الثاني عن عزمه، بدأ تدمير الحمامات سنة ١٥٦٧، وفي كانون الاول ١٥٦٨ ثار الموريسكوس وبدأت المذابح، فقد ذبح الموريسكوس الاسبان، وذبح الاسبان الموريسكوس، وقال احد البجنود الاسبان بهذا الصدد: "كنا جميعا لصوص، وكنت اولهم". ولما حاول احد القادة ان ينهي المذبحة بالتفاهم عزله فيلب واحل اخوه دون جوان قائدا فقضى على الثورة. وشتت العوائل في مختلف انحاء اسبانيا دون ان يسمح لهم بأخذ ممتلكاتهم سوى الاموال المنقولة وفرضت عليهم القيود اينما حلوا، لكن موريسكوس كانوا صناع وحرفيين مهرة استطاعوا ان يحسنوا احوالهم سرعان ما استقروا في مكان ما ونشروا الرخاء في المنطقة التي سكنوا فيها، ولعل هذا هو السبب الرئيسي في كسب عطف القادة والحكام بان لا يتمادى فيلب في اضطهاد موريسكوس. لكن امرهم لم ينته هنا، ففي سنة١٦٠٩ امر فيلب الثالث ابن فيلب الثاني بتهجير الموريسكوس من اسبانيا نهائياً.

وصلت إسبانيا قمة مجدها في النصف الثاني من القرن السادس عشر في عهد فليب الثاني. ورث هذا أملاكاً واسعة عندما تنازل والده شارل الخامس عن عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إذ أوصى الإمبراطور أن يكون اللقب الإمبراطوري وأملاك أسرة هبسبورغ من نصيب أخيه فرديناند، وأوصى الى فليب بكل من إسبانيا والأراضي المنخفضة ولكسمبورغ وبروغندي والممتلكات الإيطالية (نابولي، صقلية، ملان)، وكذلك المستعمرات الإسبانية. وأدى ذلك الميراث الذي ورثه فليب الثاني الى مشكلات معقدة في المجالين الداخلي والخارجي.

☒ المشكلات الداخلية

١- ثورة الأراضي المنخفضة:

وتعد هذه المشكلة من أهم المشكلات التي واجهت فليب الثاني. أما أسبابها فهي:

١- أسباب اقتصادية: وتتلخص في ثقل الضرائب التي فرضها فليب الثاني والقيود التجارية على تجارة الأراضي المنخفضة لحماية الاقتصاد الإسباني . وأدت هذه السياسة الى اضرار في مصالح السكان، لا سيما الأجزاء الشمالية من الأراضي المنخفضة.
٢- تجريد حكومات المدن والنبلاء من امتيازاتهم الموروثة وأنابته أخته المسماة بدوقة بارما Barma لحكم الأراضي المنخفضة.
٣- أسباب دينية: ترتبط بانتشار البروتستانتية في الأقسام الشمالية من الأراضي المنخفضة، مما أدى الى إثارة الكاثوليكية وفيليب الثاني المتعصب لهذه الديانة، فأمر بإدخال محاكم التفتيش الى الأراضي المنخفضة سنة ١٥٥٠. وأشار قرار هذه المحاكم التي قررت أن البروتستانت الذين يرفضون التوبة والرجوع عن البروتستانتية يعدمون حرقاً، ولم يسلم من عقوبة الموت حتى التائبين منهم إذ أشار ذلك القانون الى الاكتفاء بقطع رؤوس التائبين أما عقوبة النساء البروتستانتيات فيدفن أحياء، كما أشار القانون الى مصادر أموال المعاقين.
٤- أسباب شخصية: عد سكان الأراضي المنخفضة أن فليب الثاني غريب عنهم إذ أنه ولد وتربى في إسبانيا فلم يتكلم لغتهم ولم يحاول زيارة المنطقة منذ سنة ١٥٦٩.
٥- أسباب عسكرية: وترتبط هذه المسألة بإقامة حاميات عسكرية في المدن الكبرى في الأراضي المنخفضة، والتي كان على السكان تقديم المعونات الاقتصادية لها.

كانت المعارضة مركزة في البداية على سحب الحاميات العسكرية وإلغاء محاكم التفتيش. وعلى الرغم من محاولة نائبه دوقة بارما معالجة الموقف إلا أنها حققت نجاحاً محدوداً، وفي سنة ١٥٦٠، قدم جماعة من النبلاء وسكان المدن عريضة مشتركة الى دوقة بارما موقعة من قبل ٥٠ شخصاً وأستهل الطلب بتأكيد إخلاصهم للسلطة الا أنهم يخشون من قيام ثورة عامة، لذا اقترحوا على نائبة الملك أرسال وفد الى إسبانيا يطلب من إلغاء محاكم التفتيش وتحقيق العدالة في الأراضي المنخفضة وأشار أحد المستشارين على دوقة بارما برفض الطلب وان لا تخشى شيئاً من هؤلاء الفقراء والشحاذين، ولقب الفقراء هذا اختاره الملتمسون اثناء توقيعهم العريضة إذ كانت التواقيع مذيلة بالفقراء الى الله وغدت التسمية تطلق على حملة راية الثورة في الأراضي المنخفضة، وأصبح هذا اللقب محط اعتزاز الثوريين وأصبح شعاراً لهم في ثورتهم التي اندلعت في سنة ١٥٦٦، إذ قام البروتستانت بمهاجمة الكنائس والأحياء الكاثوليكية. وأرسل فليب الثاني جيشاً للقضاء على التمرد بين (١٥٦٧-١٥٧٣) اعدام خلالها ما يقدر ب ١٨٠٠٠ شخص.

وليم أورنج الملقب بالصامت قائد ثورة الأراضي المنخفضة

أصبح الأمير وليم قائداً للثورة منذ سنة ١٥٦٨، وأعتمد على الأقسام الشمالية لأن غالبيتها بروتستانتية. أما الجنوبية فأكثريتها كاثوليكية مع ذلك فقد ساندت المناطق الجنوبية الثورة لعدم ارتياحها من سياسة فليب الثاني. وتمكن وليم أورنج من تحقيق عدة انتصارات وخاصة في المواجهة البحرية مع قطع الأسطول الإسباني، حاول فليب الثاني تخفيف الوضع في الأراضي المنخفضة فأمر باستدعاء الدوق الفاALVA سنة ١٥٧٣، وعين بدله القائون ركوسينسRequesans ، وتمرد الجيش الإسباني في

الأراضي المنخفضة سنة ١٥٧٦ بعد وفاة الأخير فقام هذا الجيش بنهب العديد من المدن، لهذا أجتمع ممثلون عن معظم مناطق الأراضي المنخفضة في مدينة جانت Chant سنة ١٥٧٦، وقرروا مواصلة الحرب الى أن يستجيب فليب الى مطالب الثوار. بعد أن فشل فليب في إخماد الثورة لجأ الى أتباع سياسة التفرقة بين الثائرين واعتمد في ذلك على اسكندر فارنيس الذي عينه نائباً عنه لحكم الأراضي المنخفضة بين (١٥٧٨-١٥٩٢)، فاستغل الفوارق بين الأقسام الشمالية والجنوبية حيث كانت الشمالية من البروتستانت الكالفنيين الذين يعتمدون على التجارة أما الثانية فكانت في غالبيتها كاثوليكية فرنسية تعتمد على الصناعة. لهذا فضل الجنوب البقاء مع إسبانيا خوفاً من سيطرة الشمال، وعقد ممثلو المناطق العشر الجنوبية مؤتمراً في مدينة آراس ١٥٧٩ قرروا فيه حماية المذهب الكاثوليكي والتفاهم مع فليب الثاني، وعقد ممثلو الأقسام الشمالية السبعة مؤتمراً في مدينة يوترخت في نفس السنة بقيادة وليم أورنج أعلنوا فيه اتحادهم وقرروا مواصلة القتال ضد فليب الثاني .

٢- انقسام الأراضي المنخفضة

أدت اتفاقيتا آراس وبوترخت الى انقسام الأراضي المنخفضة شطرين تطور كل منهما بشكل مستقل عن الأخر، اذ بقي القسم الجنوبي تحت سيطرة أسرة هبسبورغ لمدة قرنين، وسميت في البداية (الأراضي المنخفضة الإسبانية)، ومن ثم(الأراضي المنخفضة النمساوية)، وهي توازي مساحة ما يطلق عليها الأن (بلجيكا) أما الأقسام الشمالية فقد دعيت بالأقاليم المتحدة United Provinces، وكذلك ب(هولندا الشمالية) التي واصلت كفاحها ثم أعلنت الاستغلال عن إسبانيا في مؤتمر لاهاي سنة ١٥٨١، الذي كان بزعامة وليم اورنج ثم عمد فليب الثاني الى أسلوب الاغتيال حينما أعياه إخضاع وليم أورنج عسكرياً، وتمكن فعلاً من اغتيال وليم أورنج سنة ١٥٨٤، ورفض فليب الثاني الاعتراف باستقلال هولندا، وأضطر ابنه فيما بعد فيليب الثالث الى عقد هدنة مع الهولنديين لمدة ١٢سنة، وكان ذلك عام ١٦٠٦. وبصورة عامة تجددت بين الإسبان و١٦٤٨ وأخيراً عند انتهاءها اضطرت الحكومة الإسبانية الى الاعتراف الكامل باستقلال هولندا بمعاهدة ويستفاليا الدولية سنة ١٦٤٨.

٣- مشاكله في إسبانيا:

كان شعار فيليب في سياسته الداخلية الاستبدادية والمركزية التامة لتحقيق الوحدة الإسبانية وفي سياسته الخارجية حاول ان يجعل إسبانيا في مقدمة الدول الأوربية الحامية للكاثوليكية ضد الحركات البروتستانتية والخطر العثماني، إلا أنه لم ينجح في هذه السياسة، وفشل أيضاً في سياسته الاقتصادية الرامية لحماية الاقتصاد الإسباني لعدة أسباب في مقدمتها:

١- توقف الموارد المالية للأراضي المنخفضة بسبب الثورة.
٢- تركز الذهب والفضة في المناجم الأمريكية من كل من بيرو والمكسيك في أيدي الرأسماليين الأجانب.
٣- عملية التسييج التي أضرت بالاقتصاد الزراعي وعطل آلاف الفلاحين.
٤- عدم توزيع الضرائب بشكل عادل ووجود أكثر من ضريبة على البضاعة الواحدة مثل ضريبة الكابالا.
٥- امتلاك الكنيسة لمساحات واسعة كمن الأراضي المعفاة من الضرائب .
٦- سياسة الاضطهاد الموجهة ضد احفاد المسلمين المشار لهم بالمورسكين في غرناطة والاقسام الجنوبية من إسبانيا مما أدى الى تدهور الاقتصاد الإسباني، إذ كان هؤلاء من أنشط العناصر في

ذلك المجال، وأمر محاكم التفتيش بإبادتهم، ودافع هؤلاء عن أنفسهم دفاعاً مستميتاً لمدة ثلاث سنوات ١٥٦٨-١٥٧١.

☒ سياسة فيليب الثاني الخارجية

محاولات فيليب الثاني جعل إسبانيا الدولة الأوربية الأولى وانها بطلة الدفاع عن الكاثوليكية في أوربا قادته الى مشكلات دولية معقدة مع البرتغال والدولة العثمانية وإنكلترا وفرنسا.

١-**فيليب والبرتغال:** حاول فيليب الثاني ان يجعل من شبه الجزيرة الايبيرية وحدة سياسية باتحاد العرشين الإسباني والبرتغالي، وواتته الفرصة على اثر مقتل ملك البرتغال سبستيان اثناء حملة قادها ضد مراكش عام ١٥٧٨في موقعة وادي المخازن قرب مدينة فاس، وكان فيليب يمتن بصلة القربى الى سبستيان، الا ان هناك من هو احق منه بالعرش البرتغالي وهو امير براكنزا Braganza . وقد تمكن فليب بأساليب الرشوة والتهديد من الفوز بذلك العرش سنة ١٥٨٠. مع ذلك استمرت المعارضة لذلك الاتحاد التي حضي بمساعدة فرنسا، ولم يكتب لهذه الوحدة الدوام اذ تمكنت اسرة براكنزا من اعتلاء العرش البرتغالي فيما بعد عام ١٦٤٠.

٢-**فيليب الثاني والدولة العثمانية:** ورث فيليب الثاني النزاع مع الدولة العثمانية حول السيادة البحرية في البحر المتوسط، اذ اصبح في النصف الأول من القرن السادس عشر سادة البحر المتوسط، مما أثار مخاوف البابوية ودويلات إيطاليا التجارية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وإسبانيا، ووجه البابا نداء الى العالم المسيحي لإنقاذ اوربا من الخطر الاسلامي ، لا سيما عندما استولى الاتراك على جزيرة قبرص عام ١٥٧٠، وأرسلت حملة بحرية بلغ عدد أفرادها (٨٠٠٠٠) مقاتل بقيادة الدون جون شقيق فيليب الثاني الذي تمكن من دحر الاسطول العثماني في معركة ليبانتوLepanto سنة ١٥٧١ قرب خليج كورنثا في اليونان، وتعد هذه الموقعة من الاحداث الهامة في تاريخ اوربا والدولة العثمانية، اذ تشير الى نهاية السيادة البحرية العثمانية في البحر المتوسط.

وبعد ان قضى فيلب الثاني على ثورة موريسكوس عين اخوه دون جوان اميرالا على اسطول الحلف المقدس المكون من اسبانيا وفينسيا وبعض المدن الايطالية. وكان الاسبان قد اندحروا امام الاسطول العثماني سنة ١٥٦٤. وكان فيلب يريد ابعاد الاتراك من المياه المحيطة بإسبانيا دون التوغل في شرقي البحر المتوسط والتورط في حرب مستمرة مع الدولة العثمانية، وعليه لما استولى الاتراك على قبرص سنة ١٥٧٠ تمكن البابا من ان يعقد حلفا بين فينسيا واسبانيا وفي معركة البحرية العنيفة دمر اسطول الحلف الاسطول العثماني بالقرب من ليبانتو في تشرين الأول ١٥٧١. وكان هذا الانتصار نقطة تحول بالنسبة للدولة العثمانية اذ انها لم تستطع بسياسة توسعية للدولة العثمانية اذ انها لم تستطع بعد ذلك ان تمارس سياسة توسعية غربا بصورة فعالة. كما ان فيلب لم يستمر في حربه ضد الاتراك في المياه الشرقية لان فينسيا هي التي تتاجر في هذه المنطقة، وكانت فينسيا عدوة آل هبسبرگك التقليدية.

٣- **فيليب الثاني وإنكلترا:** حاول فيليب الثاني استخدام اسلوب التهديد مع إنكلترا وعرض الزواج على اليزابيث الاولى، فماطلته مدة ثم رفضته فأخذ يدبر الدسائس بين الكاثوليك في إنكلترا وايرلندا واسكتلندة ضد اليزابيث، ففشل في ذلك وفشل أيضاً في اغتيال الملكة اليزابيث لإسناد العرش الى ماري ستيوارت ملكة اسكتلندة وزوجة ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي تولى ١٥٦١، وادى بعمله هذا برأس ماري ستيوارت ١٥٨٧، لهذا لجأ الى استخدام القوة ضد إنكلترا بواسطة اسطوله الارقادا(يعني الذي لا يقهر ١٥٨٨) لكن وحدته اسطوله ومقاومة الاسطول الانكليزي له وبرر ذلك بعدة اسباب :-

أ- رجاع انكلترا الى حضرة الكاثوليكية.
ب- القضاء على القرصنة الإنكليزية في البحر التي كانت تستولي على السفن المحملة بالمعادن الثمينة القادمة من البيرو والمكسيك.
ج- ساندت اليزابيث لثورة الأراض المنخفضة مادياً وعسكرياً.

قرر فليب الثاني غزو انكلترا الا انه تعرض لكارثة كبيرة بتدمير الاسطول الإسباني والمسمى بالارمادا سنة ١٥٨٨، مما ادى الى زعزعة مكانة إسبانيا وبروز انكلترا قوة بحرية فيما وراء البحار.

٤- **فيليب الثاني وفرنسا:** هناك عدة اسباب ادت الى تدخل فيليب الثاني في الشؤون الفرنسية:
أ- النزاع التقليدي بين أسرة هبسبورغ وحكام فرنسا حول إيطاليا.
ب- الخلافات الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت الفرنسيين (الهكنوت) وكان فيليب الثاني يناصر الزعيم الفرنسي كيز Guis .
ج- مساعدات فرنسا للمعترضين البرتغاليين الذين كانوا يطالبونبفصل العرش البرتغالي والإسباني.
د- عدم رغبة فيليب الثاني ان يتولى العرش الفرنسي امير نافار البوربوني.
هـ- ان مجيء حكومة كاثوليكية الى فرنسا يساعد فيليب الثاني على اخماد الثورة في أراضي المنخفضة الشمالية .

انهارت طموحات فيليب الثاني بتولي العرش هنري نافار البوربوني عرش فرنسا باسم هنري الرابع ١٥٨٩- ١٦١٠، حيث تحول الى الكاثوليكية عند اعتلائه العرش . مع ذلك استمر الصراع بين الجانبين ونتج عنه معركة بين الجانبين كتب النصر لهنري الرابع، ثم عقدت معاهدة بين الجانبين سنة ١٥٩٨ اعترفت إسبانيا بموجبها بالتوسعات الفرنسية في الجهات الشمالية الشرقية من نهر الراين مقابل اعتراف فرنسا بالأملاك الإسبانية في إيطاليا.

ثالثاً: تدهور اسبانيا في القرن السابع عشر

تمتعت اسبانيا بالسيادة الاوروبية الى منتصف القرن السابع عشر. وكان التدهور والانحلال قد بدا منذ اواخر حكم فيلب الثاني. ويمكن اعتبار حرب الارمادا نقطة تحول في تاريخ اسبانيا لأنها اثبتت عجز فيلب الثاني في السيطرة على الشؤون الاوروبية والتحكم فيها. ومع ذلك فان الفشل لم يؤثر على الحكم ونفوذ عائلة هبسبرگك الاسبانية.

وقد استمرت اسبانيا اقوى دولة في أوربا واكثرها ثروة خلال النصف الاول من القرن السابع عشر. وظلت العلاقات قوية بين فرعي عائلة هبسبرگك الاسبانية والنمساوية. وقد بينا ان فيلب الثالث خلف اباه فيلب الثاني سنة ١٥٩٨، وحكم الى سنة ١٦٢١. كما ان ابنه فيلب الرابع ١٦٢١- ١٦٦٥، دخل في حرب الثلاثين سنة لمساعدة اقاربه النمساويين، ولاستعادة هولندا والبرتغال واذلال فرنسا. وكان الوضع الدولي عاملا مهما في احتفاظ اسبانيا بسيادتها. اذ ان الحروب الاهلية في اواخر القرن السادس عشر دمرت فرنسا، كما ان مقتل هنري الرابع والاضطرابات التي حدثت في عهد رشيليو ومازارين كما سنرى في الفصل القادم انهكت قوى فرنسا في النصف الاول من القرن السابع عشر. وكانت المانيا قد دمرتها حروب الثلاثين سنة في هذا الوقت. اما انجلترا فقد انشغلت باضطراباتها الداخلية والصراع بين الملك والبرلمان الذي ادى الى الحرب الاهلية، ولهذه الاسباب كلها عاشت اسبانيا في فترة سلم ورخاء نسبي، وكانت الحرب قد انتهت بينها وبين هولندا بموجب هدنة ١٦٠٩، فصارت اسبانيا تتمتع بثروتها